بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة منقحة، بعنوان: وَكُن رَجُلاً إن أَتَوا بَعدَهُ... يَقولونَ مَرّ وَهَذا الأَثَر

نموت ونرحل ويبقى الأثر

قيمة المسؤولية: مفتاح الفعل الحضاري وصناعة الأثر النافع

نماذج مضيئة من شباب الصحابة

(أعمار قصيرة، وصُحبة قليلة، وسن صغير، ولكن آثار خالدة في الإسلام)

ابتكار حضاري وتجربة إنسانية رائدة

إبداعات الحضارة الإسلامية في مصارف الأوقاف

بقلم الدكتور/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

الجمعة: ٢٠ ربيع الأول ١٤٤٧هـ ١٢ سبتمبر ٢٠٢٥م

صفحة معارج الدعاة - موقع صوت الدعاة

الحمد لله الذي جعل هذه الدنيا ممرًّا لا مقرًّا، وجعل أعمارنا ليست بما نعدُّ من السنين، بل بما نزرع من آثار تبقى ما بقي الزمان. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كتب البقاء لأعمال الصالحين، ورفع ذكر المخلصين، وجعل آثارهم نورًا يهدى الناس والحيارى في هذه الحياة. وأشهد أن سيدنا محمدًا (ﷺ) عبدُه ورسولُه، ترك أعظم أثر في التاريخ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان، الأشرفان الأنوران، الأعطران الأزهران، المزهران المثمران، على مَن جُمعت كلّ الكمالات فيه.. وعلى آله وصحبه وتابعيه. اللهم صلّ صلاة كاملة، وسلم سلامًا تامًا، على نبي تنحلُ به العُقد، وتنفرج به الكُرب، وتقضى به الحوائج، وتُنالُ به الرغائب، وحُسنُ الخواتيم، ويستسقى الغمامُ بوجهه الكريم، وعَلَى آلِهِ الطاهرين، وصحبِه الطيبين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا... اللهم آمين يا رب العالمين.

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ... وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

مولاي صلِّ وسلم دائما أبدًا... على حبيبك خير الخلق كلهم

اللهم رضِّه عنَّا، وارض عنَّا، برضاه عنَّا.. ووضئنا بأخلاقه العظيمة، وحقق أمانينا بزيارته، وافتح لنا أبواب رؤيته، ونيل شفاعته، اللهم آمين يا رب العالمين...

أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله، فإنها وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: (... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ...) (النساء: ١٣١)، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)، وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) (الأحزاب: ٧٠-٧١). وقال تعالى: (... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٢٢٣).

أما بعد،،،

فيقول الحق تبارك وتعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (يس: ١٢).

وقال (ﷺ): (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) (١).

وعن جرير بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: جَاءَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ إلى رَسولِ اللهِ (ﷺ)، عليهِمِ الصُّوفُ، فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ علَى الصَّدَقَةِ، فأبْطَؤُوا عنْه حتَّى رُئِيَ ذلكَ في وَجْهِهِ.

قالَ: ثُمَّ إنَّ رَجُلًا مِنَ الأنْصَارِ جَاءَ بصُرَّةٍ مِن وَرِقٍ -أي فضة-، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حتَّى عُرِفَ السُّرُورُ في وَجْهِهِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ (ﷺ): (مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عليه مِثْلُ وِزْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أَوْزَارِهِمْ شيءٌ) (٢).

ويقول الإمَامِ الشَّافِعِيّ (رضي الله عنه):

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ * إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا * فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانِ

الأثر النافع والذِّكر الحسن بعد الموت من علائم توفيق الله للعبد:

من أعظم العلائم والإشارات والبشارات على توفيق الله لعبده أن يثبته على الإيمان والإحسان، وأن يكتب له بعد موته بقاء الأثر والذِّكر الحسن، فيُخلِّف أثرًا طيّبًا نافعا، يفيد الناس ويسعدهم، ويسهل عليهم أمور الحياة، فيترحمون به عليه، وتظل صحيفة حسناته عامرة زاخرة؛ بل ومتنامية على الدوام.

فالسعيد حقًّا هو من عمر أيامه بالخير، ليجنى ثمارها إذا انقطعت أنفاسه وارتحل عن دنيا الناس، مصداقًا لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (يس: ١٢)، وقال سبحانه: (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) (النجم: ٣٩-٤١).

فهذه الحياة مرحلة عابرة سائرة، ومتاع زائل ومؤقت، كما قال جل شأنه: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) (غافر: ٣٩) ، وقال عز من قائل: (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ..) (النحل: ٩٦) .

وحين يودّع الإنسان دار الفناء، وينتقل إلى دار البقاء، فلن يصحبه إلا عمله؛ فإن كان عمله صالحًا، قيل له: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(الحاقة: ١٩-٢١)، أما إن كان عمله سيئًا، فقد خسر نفسه، وصدق قول الله تعالى: (...قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزمر: ١٥) .

تأملات: نموت ونرحل ويبقى الأثر

عندما نسير في دنيا الناس، ونرفع أبصارنا إلى السماء، ونتأمل في الأرض والحياة، نجد آثارًا باقية، صنعتها أيادي السابقين، وطوّرها اللاحقون، فانتفع بها الجميع.

- هذه الطائرات التي تحلّق في السماء، لم تأتِ صدفة، بل هي ثمرة إبداع المبتكرين الأوائل، ونتاج تطوير العلماء المعاصرين.
- وتلك الأشجار المثمرة التي تظلّل طرقاتنا وتمنحنا الثمار الطيبة والأكسجين والمنظر الخلاب البديع، ما كان لنا أن نقطف ثمارها لولا مَن غرس، وسقى، ورعى، حتى آتت أُكلها بعد سنين.
- والخبرات والتجارب، والمخترعات والإبداعات في شتى مجالات الحياة، هي ميراث متراكم، تناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل، حتى وصلت إلينا فاستفدنا منها وطورناها وكفتنا عناء التجربة وتكاليفها.
- والقيم والأخلاق، وما يندرج تحتها من قوى روحية ومبادئ سامية، وعادات وتقاليد وأعراف، وضع لِبناتها السابقون، ثم حرسوها وطوّروها، حتى غدت سياجًا يحمي الحقوق، وقوة ذاتية لدعم الحق ونشر العدل والخير، ودعامةً للتعايش والتسامح، وسندًا للقوانين، وأرضًا خصبة للسلام والوئام بين بني الإنسان.
- والآثار العلمية والحضارية، التي بُذل فيها الغالي والنفيس، لتكون منارات تهدي الحاضر وتبني المستقبل.

وهكذا في كل مجال نجد بصمات مَن رحلوا، وجهود مَن سبقونا، وتطوير مَن أتي مِن بعدهم...

ولطالما تأملت كثيرًا: كيف سيكون شكل الحياة لو لم يُخلّف لنا السابقون هذه الآثار في العلم والعمل، والفكر والعمران، والأخلاق والقيم؟ بمعنى آخر: تخيل حياة بلا آثار للعلماء والمصلحين والمفكرين والساعين للخير: كيف ستكون؟.

ستكون حياةً بدائية جدا، كمدينة بلا أبنية، أو حديقة بلا زهور. ولن يكون هناك علم يُستنير به، ولا قيم تُرشد السلوك، ولا أعمال صالحة تبني المجتمع وتصلح النفوس، ولا عمارة ولا بنيان، ولا رفاهية، سيكون الإنسان فيها أشبه بسائرٍ يسير في دروب صحراء واسعة، يبحث عن طريقه بلا خريطة، وعن غذائه الروحي بلا معين، وعن هويته بلا جذور.

إن آثار السابقين أيها القارئ الكريم هي التي جعلت حياتنا أسهل، وعقولنا أنير، وقلوبنا أكثر رحمة، ومجتمعاتنا أقوى. بدون هذه الآثار، لظلّ كل جهد جديد يبدأ من نقطة الصفر، ويواجه صعوبة مضاعفة في البناء والتقدم.. إنها سُنّة الله في هذا الكون: نموت ونرحل... ويبقى الأثر.

الإنسان وآثاره بعد الرحيل:

حين يرحل الإنسان من هذه الحياة، لا يخرج حاله عن واحدة من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: (أثر صالح باق) بأن يترك الشخص أثرًا طيبا مباركًا

وقد يكون هذا الأثر ماديًّا محسوسًا كالزرع والبناء والعلم المكتوب، أو معنويًّا روحيًّا كالأخلاق والقيم والتربية. وقد يطول أثره فيمتد عبر الأجيال، أو يظل مؤقتًا محدودًا، لكنه في كل الأحوال يبقى شاهدًا على خيرٍ قدمه صاحبه.

الحالة الثانية: (أثر سيئ شائن) بأن يترك أثرًا سيئًا غير محمود

كمن يخلف وراءه فكرًا منحرفًا، أو عادة سيئة، أو أثرًا يضر الناس في دينهم أو دنياهم. وقد يطول هذا الأثر فيفسد به أجيالًا، وقد يزول سريعًا لكنه يبقى وزرًا على صاحبه.

الحالة الثالثة: (أثر منقطع) بأن يعيش ويموت نكرة، لم يترك خيرًا ولا شرًا، فيطوى ذكره سريعًا فلا يذكر له أثر، ولا يحفظ له ذكر، مرَّ في الدنيا مرور العابرين، كأن لم يكن.

وهكذا، فإن قيمة الإنسان لا تُقاس بما عاشه من سنين؛ بل بما تركه من أثر. فالأثر هو العلامة الفارقة، وهو الامتحان الحقيقي الذي يُظهر قيمة المرء بعد غيابه.

- فالعلم النافع أثر طيب مبارك، أما العلم المفسد فهو أثر سيئ خبيث.
- والخبرة إذا نُقلت وتوارثتها الأجيال، وطُوّعت لخدمة الناس، فهي أثر طيب.
- والأخلاق الكريمة أثر طيب، بينما الانحراف الخلقي أثر سيئ يفسد الحياة.
- والولد الصالح أثر طيب مبارك، بينما الولد الفاسد أثر مذموم يجر الويلات.
- والصدقات الجارية أعظم الآثار المباركة، فهي تجري على صاحبها بعد موته، وتبقى ذخيرة له عند ربه.

إنها سنّة الله في خلقه: الناس يموتون، والأجساد تفنى، لكن ما يَبقى في الدنيا هو الأثر...

ما الذي يُبْقِي الأثر؟

مما هو جدير بالتنويه والتنبيه أن الأثرَ لا يَبقى بطول العمر، ولا بِكثرة المال، ولا بقوة الجاه؛ وإنما يبقى بما يلي:

- بقدر ما يكون صاحبه مخلصًا لله تعالى، مراقبًا له في السر والعلن، محبًّا صادقًا لسيدنا رسول الله (ﷺ)، سائرا على منواله وسنته ومنهاجه.
- بقدر ما يفيض القلب بالرحمة والمودة لخلق الله جميعًا، صغيرهم وكبيرهم، قريبهم وبعيدهم.
- بقدر ما يحمل صاحبه همَّ نفع الناس، وإفادة الآخرين، والسعي في مصالحهم، والتخفيف عنهم، وهدايتهم إلى الخير.

فمتى اجتمع الإخلاص لله، مع صدق النية، والنفع للخلق، كان الأثر حيًّا وباقيًا وممتدًّا في رحاب الزمان والمكان، يُذكر صاحبه في الدنيا بخير، وتُرفع درجته في الآخرة، ويجري له أجره عند الله إلى يوم الدين.

بناء الإنسان.. وصناعة الأثر

إن بناء الإنسان الصالح النافع لنفسه، ولأمته، ولدينه، وللإنسانية جمعاء، مهمة شاقة، متداخلة الجوانب، متشابكة الأبعاد، تتطلب جهدًا كبيرًا، وهي بلا ريب أعسر بكثير من بناء الحجر والعمران.

إن غرس أشجار النبل، والصدق، والعطاء، والمحبة، والتقدّم، والإتقان، والإبداع، والعمل النافع، والسلام في نفوس المتعلمين، هو أجلّ أثر يبقى. فهذه الأشجار تنمو يومًا بعد يوم، وتكبر عامًا بعد عام، حتى تُثمر ثمارًا طيبة، ويعمّ ظلها في كل مكان، فينتشر خيرها وبرّها، وتبقى أثرًا خالدًا، وصدى مباركًا للمعلم والمربي والأستاذ والشيخ، كلٌّ في مجاله، وفي ميدان عطائه.

ولنا في الحرَفي الماهر ذي الأخلاق الطيبة مثال واضح:

فهو يورّث صبيانه ثلاثة ميراثات أساسية:

١- يُغرس فيهم الأخلاق الحميدة، والقيم النبيلة، ويعلّمهم مراقبة الله.

٢- يزرع في قلوبهم محبة الخلق جميعًا.

٣- يورّثهم خبراته، ويمنحهم من خيراته التي أنعم الله بها عليه.

وهكذا يترك فيهم آثارًا طيبة، فينشأون على الإتقان والإبداع، مقرونين بحسن الخلق، ثم ينقلون ذلك لمن يأتي بعدهم، فتتوارث الأجيال هذا الخير، وتظل أشجار الفضائل التي غرسها الأولون باقية نامية، دائمة العطاء.

البون الشاسع بين البخلاء وأصحاب الآثار النافعة:

وإذا كان الله (سبحانه وتعالى) قد مَنَّ على كلِّ واحدٍ منَّا بمواهب وعلوم ومنح وعطايا وخبرات، سواء أكانت فكرية أم علمية، أم خبرات حياتية في شتى المجالات، فإن الواجب أن تُبذل هذه النعم في نفع الناس وخدمة الأجيال، شكرًا لله، ووفاءً لفضله، ودعما للأجيال القادمة، وعملاً بقول الله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...) (القصص: ٧٧) .

•فمن الناس من يُخلِص لله، فيبذل ما علّمه الله للآخرين، ويشارك بخبراته، ويهدي مِن تجاربه، فيبقى أثره حيًّا في نفوس مَن حوله، ثم يمتد إلى الأجيال مِن بعدهم، وينتشر في كل مكان، قال تعالى: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ ..) (الحج: ٤١).

وهؤلاء الباذلون الأسخياء هم الذين وعدهم النبي (ﷺ) بالخير الجاري بعد موتهم، حيث قال (ﷺ): (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) [٣] فأهل البذل هم أصحاب الأثر الباقي، والذكر الطيب، والثواب الجزيل عند الله.

• وفي المقابل، هناك صنف آخر –والعياذ بالله– يبخل بما أنعم الله عليه، فيحبس ما أوتي من علم وخبرة، تغلبه الأنانية، وتغويه شهوة الدنيا، ويتمكن الشيطان من قلبه، فلا يُخرِج ما عنده، فيموت علمه وخبراته معه، ويضيع أثره هباءً. وقد ذمَّ الله هؤلاء في كتابه، فقال سبحانه: (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (النساء: ٣٧)، وقال تعالى: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ) (الدخان: ٢٩)، فهؤلاء حُرموا بركة العطاء، وذُكروا بالبخل والأنانية بعد رحيلهم، ومرَّت حياتهم بلا أثر، ومات ذكرهم كما ماتت أجسادهم. وهكذا يظهر البون الشاسع بين الفريقين:

- **أصحاب الأثر**: يُحيون بعد موتهم؛ بما زرعوا من علمٍ نافع، وخُلُق كريم، وبذلٍ مبارك.
- **البخلاء**: تموت أعمارهم بانقطاع أنفاسهم، فلا يُذكرون البتة!.

أنواع الآثار التي يتركها الإنسان:

الآثار التي يتركها الإنسان نوعان:

أولا: الآثار الإيجابية، مثل:

١. **الآثار المادية**: كالبنيان، والمساجد، وحفر الآبار، والمشاريع النافعة التي ينتفع بها الناس في حياته وبعد وفاته.
٢. **الآثار العلمية:** كتصنيف الكتب، وتعليم العلم، ونشر المعرفة، وتربية طلاب العلم الذين يواصلون المسيرة.
٣. **الآثار الإنسانية**: كبناء الإنسان، والإحسان إلى المحتاجين، وإطعام الجائعين، وكفالة الأيتام، ورعاية الضعفاء.
٤. **الآثار الروحية والأخلاقية**: كغرس القيم والعادارات والأعراف الفاضلة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الصالحة التي يقتدي بها الناس.
٥. **الآثار الحضارية المحلية والعالمية**: وهي ما يتركه الإنسان من منجزات محلية وأخرى تتجاوز حدود الوطن، لتسهم في بناء الحضارة الإنسانية جمعاء، مثل: إقامة العمران وتشييد المدن، وإنشاء المراكز العلمية والمكتبات، وتأسيس الجامعات، وإقامة المستشفيات، واختراع الوسائل التي تخدم الناس، وإرساء النظم التي تحفظ العدل وتنشر العلم. فهذه الآثار لا تنحصر في مجتمع أو جيل، بل تمتد عالميًّا لتفيد البشرية كلها،

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وتبقى شاهدة على بصمة أصحابها في التاريخ والكون. وهناك أمثلة حيّة من تاريخ المسلمين مثل الجامع الأزهر، بيت الحكمة، مستشفيات الأندلس، قنوات المياه العثمانية، والأوقاف التي أبدعتها الحضارة الإسلامية والدولة العثمانية والتي بلغت شأو المعالي في خدمة الإنسان والحيوان والنبات وفي إثراء الحياة.

ثانيا: الآثار السلبية السيئة

وهي ما يخلفه المرء (والعياذ بالله) من بدعة أو معصية أو ظلم أو إفساد في الأرض، فيجري عليه وزرها بعد موته، كما يجري ثواب الأعمال الصالحة على أصحابها. وقال الله تعالى في شأن مثل هؤلاء: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ) (الدخان: ٢٩).

أفضل الآثار

يقول النبي (ﷺ): (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له) [٤].

وهكذا فإن أفضل ما يتركه الإنسان من آثار هو ما اجتمع فيه (الإخلاص لله تعالى، والاستدامة، والنفع المتعدي لمخلوقات الله، وخدمة الدين والإنسان، وإعمار الكون والحياة).

وقد لخّص النبي ﷺ هذه القمّة من الآثار النافعة في حديثه الشريف السابق، لتشمل:

١. **الصدقة الجارية**: وتتضمن كلَّ خيرٍ مستمرّ نفعه، كبناء مسجد، أو حفر بئر، أو مشروع نافع ينتفع به الناس جيلاً بعد جيل.
٢. **العلم النافع**: وهو كل معرفة تهدي العقول، وتنير القلوب، وتُصلح حياة الناس وتدفعهم إلى الخير.
٣. **الولد الصالح**: وهو ثمرة التربية الصالحة والقدوة الحسنة، يجري لصاحبه ثوابه ما دام الولد يعمل بطاعة الله ويدعو لوالديه.

فهذه الثلاثة هي ذروة الآثار النافعة التي لا ينقطع خيرها بوفاة صاحبها، ومنها تنبثق مطلات الخير وصنوفه في كل اتجاه، وتبقى جارية أبد الدهر.

من أعظم الآثار الخالدة التالدة التي تركها النبي (ﷺ)

ترك سيدنا رسول الله (ﷺ) أثرًا خالدًا امتد عبر العصور، وما زال نبراسًا يضيء القلوب والعقول والحياة وسيظل، ومن أبرز هذه الآثار:

١. **القرآن الكريم**: وهو دستور دساتير الصلاح والإصلاح والتربية والعدالة والرحمة، وهو أعظم ميراث خالد، فهو هداية للبشرية، ونور لا ينطفئ، يتضمن كل معاني ومعالم الحق والخير.
٢. **السنّة النبوية المشرفة**: هديه، وأفعاله، وأقواله، وتقريراته وتشريعاته، وهي دستور الأخلاق ومدرسة عملية تربوية ملهمة لكل زمان ومكان.
٣. **الشريعة الإسلامية**: منظومة متكاملة تنظم علاقة الإنسان بربه، وبالآخرين، وبالكون والحياة.
٤. **جيل الصحابة الكرام**: رجال ونساء تخلقوا بالقيم النبوية، ونشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.
٥. **المسجد الحرام بعد تطهيره من الأوثان**: أعاد إليه مكانته بيتًا خالصًا للتوحيد، محاطًا بالسكينة والطمأنينة.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

٦. **المسجد النبوي الشريف**: مركز إشعاع علمي وروحي ودعوي، انتشر منه نور الإسلام في كل مكان، وظل منارة للمؤمنين عبر القرون.
٧. **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**: نموذج خالد للأخوة الحقيقية والتراحم والتلاحم والتكافل الاجتماعي.
٨. **وثيقة المدينة**: أول دستور حضاري ينظم العيش المشترك ويضمن الحقوق والواجبات لجميع مكونات المجتمع.
٩. **قيم الرحمة والعدل**: تجسدت في سيرته قولًا وعملًا، فكانت ملامح حيّة تهدي الناس، وبها أرست أخلاقه معايير العدل والإنصاف، وغرست في المجتمع روح الرحمة والإنسانية..
١٠. **وحدة الأمة**: جمع شتات العرب، ونشر روح الانتماء الديني، فكانت دعوة شاملة للعالم.
١١. **السيرة النبوية العطرة**: مدرسة حيّة للتربية، ومصدر إلهام للأجيال على مدار التاريخ.
١٢. **الدعوة العالمية**: فقد وصلت دعوته لكل أرجاء الأرض.
١٣. **القدوة العملية**: كان (ﷺ) نموذجًا حيًّا لتطبيق كل ما يدعو إليه.
١٤. **تزكية النفوس**: أخرج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور التوحيد والعلم والعمل الصالح.
١٥. **حجّة الوداع**: خطبة جامعة لخلاصة الرسالة، تؤكد كمال الدين، وتمام النعمة، وحقوق الناس وواجباتهم.
١٦. **العبادات**: الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج... عبادات باقية، تنير القلوب وتربي النفوس.
١٧. **نشر العلم**: حثّ على طلب العلم، وعلى بذله ونشره، وتمكينه في الحياة، وعلّم كيف يكون العلم وسيلة للإصلاح والبناء، فصار المسلمون حملة مشاعل الحضارة.
١٨. **تربية الأجيال**: ترك جيلًا من القادة والعلماء والعباد، كلٌّ منهم يستكمل المسيرة النبوية.
١٩. **إقامة العدل بين الناس**: لا فرق بين قوي وضعيف، غني وفقير، بل كلهم متساوون أمام شرع الله.
٢٠. **تحرير الإنسان من عبودية غير الله**: دعوة صافية للتوحيد، تحرّر النفوس من الظلمات إلى أنوار الإسلام.
٢١. **رفع مكانة المرأة**: أكرمها وأعطاها حقوقها، فصارت شريكة في المجتمع، وحقها محفوظ شرعًا.
٢٢. **حماية حقوق الضعفاء والمساكين**: نصرة اليتامى، ورعاية الفقراء والمحتاجين، وإرساء قيم التكافل الاجتماعي.
٢٣. **الرحمة بالبيئة والكائنات**: غرس قيم الرحمة والرفق بالحيوان والخلق كله.
٢٤. **الوسطية والاعتدال**: أرسى ميزانًا للحياة، في العبادة، والمعاملة، والتعامل مع الآخرين.
٢٥. **بقاء ذكره حيا في القلوب وفي الكون وفي الملأ الأعلى**: بالصلاة والسلام عليه، وبذكره في كل وقت وحين، في الشهادتين، وفي الأذان والإقامة والصلوات، وفي قلوب المؤمنين عبر العصور، وهذه مكرمة من الله الكريم لخير الأنام ومسك الختام، سيدنا محمد (عليه الصلاة وأتم السلام).

نماذج مضيئة من شباب الصحابة

(أعمار قصيرة، وصُحبة قليلة، وسن صغير، ولكن آثار خالدة في الإسلام)

(سعد بن معاذ، وأبو هريرة، وابن عباس)

آثار خالدة في عمر قصير... دروس من حياة سعد بن معاذ (رضي الله عنه)[٥]

(٥) راجع ترجمته في: كتاب سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ط دار الحديث، ج ٣، ص ١٧١-١٨٤، والطبقات لابن سعد ٣/ ٤٢٠ - ٤٣٦، التاريخ الكبير ٢/ ق ٢/ ٦٥، الجرح والتعديل ٢/ ق ١/ ٩٣، وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٨١، والإصابة ٢/ ٣٢٠٤.

نقف اليوم مع صفحة من الصفحات المضيئة في تاريخ الإسلام، صفحة بطلٍ لم تطل حياته أكثر من سبعٍ وثلاثين سنة، لكنها كانت مفعمة بالإيمان، عامرة باليقين، مليئة بالعطاء والجهاد، حتى غدا أثره في التضحية والبذلِ والعطاء شاهدًا خالدًا إلى يوم الدين. إنه سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) سيد الأوس، الذي اهتز لموته عرش الرحمن.

له من اسم نصيب:

يقال: لكل مسمّى من اسمه نصيب، وبالفعل فإن في اسم سعد بن معاذ سرًّا بليغًا؛ فـ"**سعد**" يحمل معنى السعادة والفرح، وقد كان (رضي الله عنه) مصدر سعادةٍ للمؤمنين ونصرةٍ للإسلام، حتى اهتزّت المدينة فرحًا بإسلامه، واهتزّ عرش الرحمن يوم وفاته. وأما "**معاذ**" فمن العَوذ، أي الملجأ والحماية، وقد كان حقًّا معاذًا للمسلمين، يحميهم ويدافع عن دينهم، ويؤويهم بقوة إيمانه وشجاعته. فكأن اسمه قد جمع بين الوصف والمسمّى؛ سعادةٌ أظلّت المؤمنين بمواقفه، ومعاذٌ كان حصنًا وملجأً للإسلام وأهله.

وكان سعد بن معاذ رجلًا أبيض طويلا جميلًا، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية. وقيل: كان سعد بن معاذ وأسعد بن زرارة ابني خالة. وقال ابن إسحاق: آخى رسول الله (ﷺ) بين سعد بن معاذ وأبي عبيدة بن الجراح (أمين الأمة)، وقيل آخى بينه وبين سعد بن أبي وقاص.

إسلامه.. أثر في أمة:

أسلم سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير (رضي الله عنه)، فما أن شرح الله صدره للإسلام حتى عاد إلى قومه وقال كلمته الشهيرة:

يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدُنا فضلًا، وأفضلُنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً...

قال: فإن كلامَكم عليَّ حرام، رجالكم ونساؤكم حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

وسبحان الله الوهاب، فالله (عز وجل) قذف نور الإيمان في قلوبهم، بمجرد أن دعاهم إلى الإسلام...

قال فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلَّا وقد أسلموا.

فأيُّ أثرٍ أعظم من أن يكون سعد سببًا في هداية قبيلةٍ كاملة إلى الحق؟ وإلى الإسلام الحنيف...

فما بالنا إذا لم تكن هذه القبيلة المهمة –التي تناسل منها ملايين البشر عبر العصور– قد دخلت في دين الله؟!.

مواقفه... عزةٌ لا تُقهر

لم يكن سعد رجلاً عاديًا، بل كان شامخًا في الحق، ومواقفه يسودها النخوة والشجاعة والإباء، فعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: انطلق سعد بن معاذ معتمرًا، فنزل على أُميَّة بن خلف، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام يمر بالمدينة فينزل عليه.

فقال له أُميَّة: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس، طفت –أي بالبيت الحرام.

فبينا سعد يطوف إذ أتاه أبو جهل، فقال: مَن الذي يطوف آمنًا؟.

قال: أنا سعد.

فقال: أتطوف آمنا وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟

قال: نعم. فَتَلاحَيا [٦] .

فقال أُميَّة: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي.

فقال سعد: والله لو منعتني لقطعت عليك متجرك بالشام.... والقصة مشهورة

فارتعد أبو جهل وسكت، فكانت كلمة سعد كالصاعقة.

(٦) "فَتَلاحَيا" أي تخاصما وتجادلا وتنازعا بالقول.

جهاده... تضحية حتى الممات

شهد بدرًا والخندق، وهناك أصيب بسهم في أكحله. وضُرب له خيمة في المسجد ليعوده النبي (ﷺ) من قرب. وظل سعد يناجي ربه: "اللهم لا تقبضني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة".

فاستجاب الله دعاءه، حتى إذا حكم فيهم بالعدل، انفجر جرحه، وسالت دماؤه، وحُمل إلى رسول الله (ﷺ)، فأخذ رأسه ووضعه في حجره، ودعا له بخير دعاء.

وفاته... لحظة اهتزت لها السماء

ثم حانت ساعة الرحيل... لحظة لم تكن عادية؛ بل حدثًا عظيمًا ترويه السماء والأرض: فعن أم المؤمنين السيدة عائشة قالت: حضر رسول الله (ﷺ) وأبو بكر وعمر، سعد بن معاذ وهو يموت في الخيمة يوجد فيها في المسجد. قالت: والذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي فكانا كما قال الله: (...رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ...) (الفتح: ٣٩).

ولما انفجر جرح سعد، أسرع إليه رسول الله (ﷺ) فأسنده إلى صدره والدماء تسيل عليه. فجاء أبو بكر فقال: وانكسار ظهراه على سعد!

فقال رسول الله (ﷺ): مهلًا أبا بكر.

فجاء عمر فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وعن الحسن البصري(رضي الله عنه) قال: كان سَعدٌ بادِنًا، فلمَّا حمَلوه وجَدوا له خِفَّةً، فقال رِجالٌ مِن المُنافقينَ: واللهِ إنْ كان لَبادِنًا، وما حمَلْنا أخَفَّ منه. فبلَغَ ذلك رسولَ اللهِ (ﷺ)، فقال: (إنَّ له حَمَلةً غيرَكم، والذي نَفْسي بيَدِه، لقد استبشَرَتِ الملائكةُ برُوحِ سَعدٍ، واهتَزَّ له العَرشُ!) [٧].

عن عائشة قالت: ما كان أحدٌ أشد فقدًا على المسلمين بعد النبي (ﷺ) وصاحبيه أو أحدهما، من سعد بن معاذ. وكان لسعد من الولد عبد الله وعمرو فكان لعمرو تسعة أولاد [٨].

ومن كراماته ومناقبه أنه لمّا جاء أجلُه، لم يكن رحيله عاديًّا، بل حدَثٌ اهتز له عرش الرحمن وما ذاك إلا لمكانته عند الله، وصدقِ إيمانه، وعظيمِ أثره. وهكذا كانت حياة سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قصيرةً في عِداد السنين، لكنها عظيمة في الموازين... عُمْر قصير، لكنه امتلأ بالإيمان واليقين والصدق والإخلاص والجهاد والعدل، فصار أثره خالدًا في الدنيا، ومقامه رفيعًا عند الله في الآخرة.

فالعبرة ليست بطول الأعمار ولا بكثرة السنين، وإنما بما نزرع فيها من أعمال صالحة وآثار باقية. عاش سعد قليلاً، لكنه ترك بصمةً لا تزول، وذكرًا باقيًا في قلوب المؤمنين، وسيرةً تتناقلها الأجيال، ودرجةً عاليةً في الجنة. وهكذا المؤمن الصادق: قد يرحل سريعًا، ولكن أثره يبقى خالدًا شاهدًا له إلى يوم الدين.

أثر عظيم على الرغم من قِصر الصحبة: دروس من حياة أبي هريرة (رضي الله عنه)

ومن الآثار الخالدة في تاريخ أمتنا: أثرُ الصحابي الجليل عبد الرحمن بن صخر الدوسي الذي كنَّاه النبي (ﷺ) بأبي هريرة (رضي الله عنه) ذلكم الفقيرُ، الذي جاء إلى رسول الله (ﷺ) طاوِيًا جائعًا، فما شبع من طعام الدنيا، ولكنه شبع من نور العلم والذكر، حتى صار حافظَ الأمة الأمين.

---

(٧) أخرجه ابن هشام في (السيرة)) (٢/ ٢٥١) بلفظه.

(٨) وعن واقد بن عمرو بن سعد قال: دخلت على أنس بن مالك –وكان واقد من أعظم الناس وأطولهم –فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ، قال: إنك بسعد لشبيهٌ ثم بكى فأكثر البكاء ثم قال: يرحم الله سعدًا كان من أعظم الناس وأطولهم.

ولازَمَ النبيَّ (ﷺ) أربع سنين فقط، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد روى عنه أكثر من خمسة آلاف حديث، فكان صلةً للأمة بنبيها، وواسطةً لنقل ميراث النبوة إلى الأجيال... نقل لنا كثيرا من أحاديث النبي العظيم...

لقد عاش أبو هريرة حياةً زاهدة، متقشفة، لكنه ترك لنا أثرًا لا ينفد: علمًا يُروى، وهديًا يضيء الطريق للمؤمنين إلى يوم القيامة.

آثار عظيمة على الرغم من صِغَر سنه في حياة النبي (ﷺ).. عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)

عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)، ذلكم الغلام الصغير الذي لقي النبي (ﷺ)، وهو صغير ولكنه كان ذا قلب واعٍ، وذهن صافٍ، وروح متعطشة للعلم.

رأى النبي (ﷺ) فيه ملامح النباهة والنبوغ، فدعا له... يقول عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنَّ النبيَّ (ﷺ) دَخَلَ الخَلَاءَ، فَوَضَعْتُ له وَضُوءًا قالَ: مَن وضَعَ هذا؟ فَأُخْبِرَ فَقالَ: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ) [٩]. وفي واية (اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّين، وعلِّمْهُ التَّأويلَ) [١٠]. فاستجاب الله (تعالى) دعوة نبيه، فصار ابن عباس إمامًا في التفسير والفقه والحديث والعلم، ولقبه الصحابة بـ "حَبر الأمة وترجمان القرآن".

لقد عاش ابنُ عباس مع رسول الله (ﷺ) سنين قليلة، يلازمه ويشهد أحواله، ثم بعد وفاته حمل الأمانة العظمى، فأوقف حياته على طلب العلم، كان يطرق أبواب كبار الصحابة يسألهم ويتعلم منهم، فإذا ناموا على راحاتهم وقف على أبوابهم متأدبًا في حرّ الشمس ينتظرهم حتى يستيقظوا، ليظفر بعلم حديث أو تفسير آية.

فما هي إلا سنوات حتى غدا بحرًا زاخرًا بالعلم والنور، يقصده الناس من كل فج، ويجلس إليه التابعون والعلماء، فيفيض عليهم من معين فهمه لكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، حتى قالوا: "ما رأينا أحدًا أعلم بكتاب الله من ابن عباس".

ومن أثره الباقي أنه خرّج جيلًا من العلماء، ونقل للأمة ميراث النبوة غضًّا طريًّا، فصار علمه منارًا يُهتدى به، ومورِدًا ينهل منه المسلمون إلى يوم الدين.

فانظروا: كيف أن صِغر سنه لم يمنعه أن يكون ناقلًا لتراث النبوة، ومرجعًا للأمة، ومفتاحًا لفهم كلام الله (جل وعلا). وإنها لرسالة بليغة للشباب: ليس المهم كم تعيش، وإنما كيف تعيش، وبماذا تملأ عمرك. قد يقصر العمر، لكن إذا مُلئ بالإخلاص وطلب العلم وخدمة الدين، صار العمر بركة، وبقي الأثر خالدًا إلى قيام الساعة.

الأثر الحضاري الإسلامي: التحديات والفرص أمام الأمة اليوم

دروس من التاريخ الإسلامي

(٩) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه.

(١٠) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب – صحيح..

إن للأثر في حياة الأفراد والأمم قيمةً عظيمة؛ فالمجتمعات –كما الأفراد– تمر بمراحل شبيهة بمرحلة الطفولة، ثم الشباب، ثم النضج.

وفي بداياتها تكون المجتمعات كالأطفال، تتأثر بالكلمة الطيبة، والفعل الحسن، والعلاقات الرحيمة.

ولقد بدأ الإسلام في أول أمره في مكة المكرمة، فأراد الرسول العظيم أن ينقل الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله، فكانت البداية بالصدق والأمانة، والكلمة المشرقة، والخلق العظيم، والمعاملة الطيبة، والسلوك النبيل، حتى أثمر أثرًا في القلوب والمجتمعات.

ثم لما اكتمل دين الله، وانتشر نوره في كل مكان، وتكونت حضارة الإسلام، وأصبحت مترامية الأطراف، اتسع الأثر، واتخذ بُعدًا جديدًا، لينتقل من الأثر المحلي أو العادي، إلى الأثر العالمي والإنساني والحضاري الراسخ؛ فمنذ عصر النبوة في القرن السابع الميلادي، وحتى القرن الثاني عشر، نظر العالم كله إلى الحضارة الإسلامية –التي أسسها رسول الإنسانية سيدنا محمد (ﷺ)– على أنها القوة العظمى في العالم وقتذاك؛ لما قدمته للبشرية من آثار خالدة في: الطب، والصيدلة، والهندسة، والعمارة، والفلك، وسائر العلوم والفنون.

ولقد أدرك الأوروبيون قيمة ما تركه المسلمون من آثار نافعة، فنهلوا منها، واعتنوا بها، وأولوها العناية والرعاية والدراسة، وأسسوا على قواعدها نهضتهم.

ولا يزال العالم المتقدم إلى يومنا هذا يُدَرِّس في أعرق الجامعات الأوروبية والأمريكية نظرياتٍ واكتشافات تحمل أسماء علماء مسلمين مبدعين.

وهذا هو حال الأمم: فالأثر بمفهومه الحضاري وبمفهومة العالمي ثروة حقيقية، تحفظ الشعوب به حياتها، وتتقدم به أجيالها.

وقيل في المثل الشعبي: "خُد من التلّ يحتل"، فلابد إذًا من أن يضيف الخلف إلى ما تركه السلف، إبداعًا جديدًا وآثارًا نافعة تبني عليها الأجيال التالية، وكما زرع لنا من قبلنا في شتى المجالات، فنحن لابد أن نزرع لمن ياتي بعدنا.

وأعظم مثال على قيمة الأثر ما تركه هؤلاء السادة الرواة والمُحدِّثين الذين نقلوا لنا السنة النبوية المشرفة؛ إذ اجتهد جيل بعد جيل في الرواية والضبط والتحقيق والتمحيص واختبار السند والمتن... إلخ، حتى بلغتنا أحاديث سيدنا رسول الله (ﷺ)بالسند المتصل إليه والمنهجية المحكمة التي اختص الله بها الأمة المحمدية.

ولولا ذلك الجهد المتتابع لما وصلتنا الأحاديث بهذه المصداقية والضبط.

لكن الحقيقة المُرّة أن كثيرًا من المسلمين اليوم اكتفوا بأن يعيشوا ويعيدوا إنتاج الأولين وفي ذلك تكرار لا ابتكار، ويستهلكونه دون إضافة. وهذا حال مقلق، لأن الريادة لا تستمر إلا بالإبداع والتجديد، وترك الأثر الفردي والجماعي، كما أشار الشاعر الكبير الأستاذ حافظ إبراهيم:

وَقَفَ الخَلقُ يَنظُرونَ جَميعاً *** كَيفَ أَبني قَواعِدَ المَجدِ وَحدي
وَبُناةُ الأَهرامِ في سالِفِ الدَه *** رِ كَفَوني الكَلامَ عِندَ التَحَدّي
أَنا تاجُ العَلاءِ في مَفرِقِ الشَر *** قِ وَدُرّاتُهُ فَرائِدُ عِقدي
أَيُّ شَيءٍ في الغَربِ قَد بَهَرَ النا *** سَ جَمالاً وَلَم يَكُن مِنهُ عِندي

لذلك فإن ضعف ذاكرة الأجيال عن آثار مَن سبقوهم، أو اكتفاءهم بثمار الأمس دون إضافة وتجديد وتطوير وإبداع وإيداع آثار حضارية جديدة، سيضعف الأثر وربما يميته فيموت ويَزوى كما يموت الإنسان والحيوان والأحياء.

وإن المصريين الأوائل تركوا لنا حضارةً خالدة عمرها سبعة آلاف سنة وربما يزيد، ومع ذلك نسأل أنفسنا: ماذا أضفنا نحن أحفاد هذه الحضارة؟ أهو أثر طيب يُحمد بعدنا، أم غير ذلك؟

كما أن الريادة التي حازها المسلمون وحققوها يوم أن تمسكوا بكتاب ربهم وقيم دينهم العظيم، قد تراجعت يوم فرطوا في ذلك.

واليوم، الخطر أن نصبح مستهلكين لا منتجين، متلقين لا مبتكرين، فتضعف آثارنا، ويبهت حضورنا الحضاري.

ولهذا، فإن الواجب الملحّ أن نُربّي أبناءنا على:

- المسؤولية الفردية والجماعية والكونية.
- وثقافة ترك الأثر الطيب.
- وغرس قيمة العمل المثمر في وجدان مجتمعاتنا.
- وأن تتحمّل مؤسسات الدولة –في مختلف المجالات– مسؤولية تربية الأجيال على بناء أثر حضاري جديد ومفيد.

الأثر فعل حضاري، لا كلمات أو شعارات:

إن الأثر الحضاري لا يُبنى بالأمنيات ولا يُشيَّد بالشعارات، وإنما يتجسّد في الواقع عبر العمل الدؤوب والإنجاز الملموس. فالأمم أيها السادة لا يخلّدها خطاب بليغ، وإنما يخلّدها ما تُقدمه للبشرية وللأجيال من عطاءات وإنجازات ومخترعات وابتكارات، واستنبات للعلوم، والتناسل الفكري...

ولعل من أبرز صور الأثر الفعلي:

- **بالزراعة المستدامة**: عبر زيادة الرقعة الزراعية، والتوسع في جلب موارد المياه، وتحلية مياه البحر، وتعظيم الاستفادة من كل نقطة ماء، والاعتماد على التقنيات الحديثة في الريّ، وتشجيع البحث العلمي ومراكز البحوث الزراعية على استنبات أصناف لزراعات ونباتات استراتيجية كالقمح وغيره، تعتمد كميات قليلة من المياة، وتعطي إنتاجية أعلى، وبما يكفل الأمن الغذائي للأمة.
- **وبالثورة الصناعية والتكنولوجية**: من خلال بناء الصناعات الوطنية الخفيفة والثقيلة، وتشجيع البحث العلمي والاختراعات، والتحوّل الرقمي الذكي، وتوطين التكنولوجيا المتطورة، حتى نصبح منتجين لا مستهلكين.
- **وبالتعليم الراقي**: تعليم يواكب روح العصر، يربط بين المعرفة والعمل، ويُطلق طاقات الإبداع والبحث، ويُعِدّ أجيالًا قادرة على قيادة المستقبل وصناعة النهضة.
- **وبالتكافل الاجتماعي والتلاحم الوطني**: في صورة تراحمٍ بين أفراد المجتمع، وتعاونٍ بين طبقاته، وتكاملٍ بين اقتصاده، بحيث لا يُترك ضعيف ولا يُهمَّش محتاج.
- **وبالثورة الأخلاقية والقيمية**: فالحضارة بلا أخلاق لا قيمة لها؛ فالإيمان بالله، والرقابة الذاتية، والالتزام بالقيم الراسخة، هي البوْصلة التي توجه مسيرة الحضارات.
- **وبالبنية التحتية المتطورة**: من طرق وجسور ومواصلات ومطارات وموانئ، تُيسِّر حركة الناس والبضائع وتدعم الاقتصاد الوطني.
- **وبالسياسة الرشيدة والإدارة الفعّالة**: التي تحفظ الحقوق، وتُعلي من شأن العدالة، وتحمي مقدرات الوطن، وتفتح المجال للمشاركة المجتمعية.
- **وبالريادة الثقافية والفنية**: التي تُعبِّر عن هوية الأمة وتاريخها، وتُسهم في نشر قيم الجمال والخير عبر الآداب والفنون والإعلام الهادف.
- **وبحماية البيئة والموارد الطبيعية**: حفاظًا على حق الأجيال القادمة في ثرواتٍ مستدامة.

فالأثر إذًا هو مشروع حضاري متكامل، يُبنى بالعلم والعمل، ويزدهر بالأخلاق والقيم، ويترسخ بالإبداع المتجدد وبالمسؤولية الوطنية؛ حتى يبقى شاهدًا خالدًا على عظمة الأمة، جيلاً بعد جيل، ومن ثم نحقق وصف الله لنا: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﷻ..) (آل عمران: ١١٠).

فالأمم أخلاقٌ وآثار، فإذا ذهبت أخلاقها وآثارها ذهبت، وإذا حفظتها سمت وارتقت، جيلاً بعد جيل.

قيمة المسؤولية

مفتاح الفعل الحضاري وصناعة الأثر النافع

الناظر المدقق في حال الدول المتقدمة يلحظ أن قيمة المسؤولية هي المحرك العملاق الذي يدفع الناس دفعًا نحو الارتقاء والتقدم والنهوض والتأثير في الحياة، وترك الأثر؛ لذلك تسعى لتمكينها في جنبات المجتمع.

وتتعاظم قيمة المسؤولية في خضم سباق الدول المحموم للصعود إلى القمم الاقتصادية والصناعية والتقنية... إلخ، أو البقاء عليها، وأيضا في سياق مواجهة كثير من دول العالم للتحديات والمشكلات والأزمات التي تواجهها.

وفي إطار سعي الأمة العربية والإسلامية الحثيث للانطلاق إلى آفاق التقدم والازدهار؛ فنعتقد أنه لن يكون أمامها من بديل عن تمكين القيم الدافعة للتقدم في الفكر الإسلامي والفكر الإنساني؛ لتكون بمثابة: القاعدة الصُّلبة لبنية مجتمعية تسودها المحركات الذاتية الداخلية، والمرتكزات والمنطلقات والمنصَّات المساعدة للإقلاع الحضاري، وعلى رأسها: قيمة المسؤولية وزرعها، ونثرها ونشرها، وتجذيرها وترسيخها في قلب المجتمع والناس...

والمنهج الإسلامي بعالميته وصلاحيته لكل زمان ومكان، قادر على قيادة البشرية إلى مراشدها، ومن ثم فيه المسعف لمبتغانا؛ بل هو زاخر بمقومات المسؤولية الشاملة والمتكاملة والقابلة للتحقيق والتطبيق، وما علينا إلا تمثلها حياتيًّا؛ حتى تعيش فينا ونعيش فيها، ومن ثم تصير منهج حياة لنا وللأجيال القادمة..

ويجدر بنا هنا أن نوضح معالم المسؤولية في الإسلام، وهي فردية، وجماعية، واجتماعية، وإنسانية.

أولا: المسؤولية الفردية

وتعني كل ما يجب على الإنسان أداؤه تجاه ربه تعالى، وتجاه نفسه؛ حيث يكون مسئولا عن جوارحه، وعن بدنه، وعقله، وعلمه، وعمله، وأسرته، وعباداته، ومعاملاته، ومسئولياته، وما يجب عليه أداؤه تجاه بني جنسه، وأيضا تجاه شتى مفردات الطبيعة والكون (الحيوان، والنبات، والجماد، والماء، والفضاء... إلخ). يقول الحق تبارك وتعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب: ٧٢)، فهذه الآية الكريمة تدل على المسؤولية بمعناها الشامل، فالأمانة هنا تعني المسؤولية تمامًا. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنفال: ٢٧)، وقد سمَّى اللهُ تعالى التقصيرَ في تحمل مسؤولية الأمانة بالخيانة. وقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (الإسراء: ٣٤)، فهذه الآية تدل على مسؤولية الإنسان عما يقطعه على نفسه من العهود والمواثيق مع الآخرين، تحقيقًا لصالح الناس. وقوله: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء: ٣٦)، ففي هذه الآية التصريح بمسؤولية الإنسان عن جوارحه، فهو محاسب على كل ما يقوم به[١١]. وقال: (وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٣)، وقال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (المدثر: ٣٨)، ويقول أيضا: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (فاطر: ١٨)، ويقول تعالى: (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) (الأنعام: ١٠٤)، (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) (لقمان: ١٢)، وقال تعالى: (مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (فصلت: ٤٦)، ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر: ١٨).

---

(١١) مروان محمد أبو بكر: كلمات في مفهوم المسؤولية http://iswy. co/e١٨tb٦

معالم المسؤولية وشمولها:

ويحدد النبي (ﷺ)معالمَ المسؤولية وشمولَها[١٢]، فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه سمع رسول الله (ﷺ)يقول: (كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه، فالإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجلُ راعٍ في أهلِه ومسؤولٌ عن أهلِه، والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجِها ومسؤولةٌ عن رعيَّتِها، والخادمُ راعٍ في مالِ سيِّدِه ومسؤولٌ عن رعيَّتِه وكلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّتِه)[١٣]. وهكذا فإن بنية المسؤولية الشاملة تبدأ من الفرد وتنتهي إليه.

ثانيا: المسؤولية الجماعية تجاه الآخرين

وحتى نهيئ البيئة المسلمة للإبداع والاتقان وترك الأثر الحضاري، فلابد من ترسيخ المسؤولية الجماعية، ولقد تفرد المنهج الإسلامي في ترسيخ المسؤولية بأنواعها المخلفتة، وجعلها تنبعث من العمق الديني، لتروي وتحيا وتعيش وتترعرع في بيئة دائمة ونصوص مدعِّمة على الدوام... وهذا النوع من المسؤولية الجماعية يشمل:

١. **ضبط اللسان**: يقول النبي (ﷺ): (مَن كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيصمُتْ)[١٤].
٢. **ضبط الفضول**: يقول (ﷺ): (مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ)[١٥].
٣. **ترك الجدال والكذب**: يقول (ﷺ): (أنَا زَعِيمُ بَيتٍ في رَبَضِ الجنةِ، لِمَنْ تَرَكَ المِراءَ و إنْ كان مُحِقًا، وبَيتٍ في وسَطِ الجنةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وإنْ كان مازِحًا، وبَيت في أعلى الجنةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ)[١٦].
٤. **ضبط النفس**: قالَ رجل للنبيّ (ﷺ): أوْصِني، قالَ: (لا تَغْضَبْ) فَرَدَّدَ مِرارًا، قالَ: (لا تَغْضَبْ)[١٧].
٥. **سلامة القلب**: يقول (ﷺ): (لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[١٨].
٦. **حماية الأعراض**: تحريم الزنا، والتحذير من مقدماته كالاختلاط المحرم والخلوة المحرمة والنظر المحرم والتبرج... إلخ، وأوجب الاستئذان.. والنصوص والأدلة في ذلك كثيرة.
٧. **حماية الجار وإكرامه**: يقول (ﷺ): (مَن كان يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكرِمْ جارَه)[١٩].

هكذا يُسيِّج المنهج الإسلامي العلاقات الاجتماعية بسياج المسؤولية الجماعية، ليجعلها حصنًا متينًا يحمي البناء الاجتماعي ويقوّيه، باعتباره القاعدة الصُّلبة للانطلاق نحو الازدهار، ونحو المستقبل، ونحو ترك الأثر النافع.

فلا يمكن أن يتحقق البناء الروحي والمادي للإنسان والأوطان، ولا أن تُصان الحضارة وتترسخ آثارها، إلا في ظل بنية اجتماعية متماسكة، متراحمة، متلاحمة، متعايشة، يحمل كل فرد فيها نصيبه من المسؤولية، ويؤدي واجبه تجاه مجتمعه وأمته والعالم.

ثالثا: المسؤولية المجتمعية

وتعني قيام المجتمع أفرادا ومؤسساتٍ وقيادات بواجبهم نحو أوطانهم، والمحافظة على مكتسباتها وثرواتها، والمال العام والخاص، ونشر القيم، وترسيخ التسامح، والأمن، والسلام، وإطعام الجائع، وكساء العاري، ومداواة المريض،

---

(١٢) بوصلة المسؤولية.. وتدرج خطوطها المتوازية: إذا أردنا التمكين والتمتين لثقافة المسؤولية، وما يترتب عليها من إصلاح الفرد والمجتمع والإنسانية، فيجب أن نضبط بوصلة المسؤولية، ونتحرك في سبعة خطوط متوازية. الخط الأول: إصلاح الشخص علاقته بالله تعالى. الخط الثاني: إصلاح الشخص علاقته مع نفسه عمومًا، ومع صحته النفسية والروحية والجسدية خصوصًا. الخط الثالث: إصلاح الشخص علاقته بأهل بيته. الخط الرابع: إصلاح الشخص علاقته مع أقاربه وذوي رحمه. الخط الخامس: إصلاح الشخص علاقته مع عمله ورؤسائه وزملائه. الخط السادس: إصلاح الشخص علاقته مع الناس.. كل الناس. الخط السابع: إصلاح الشخص علاقته مع شتى مفردات الطبيعة والكون والحياة.

(١٣) صحيح ابن حبان.

(١٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(١٥) أخرجه الترمذي وابن ماجة.

(١٦) أخرجه أبو داود في سننه.

(١٧) أخرجه البخاري في صحيحه.

(١٨) أخرجه البخاري في صحيحه.

(١٩) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

وإغاثة الملهوف، وتأمين الخائف، وتعليم الجاهل، وهداية الحائر، وزراعة الأشجار المثمرة، والحفاظ على الماء والهواء والفضاء والبحار من التلوث... وغيرها كثير.

وهنا نتذكر ما فعله سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، عندما اشترى "بئر رومة"؛ لمَّا علم حاجة المسلمين الماسة إليه، وأوقفه عليهم، انطلاقا من المسؤولية تجاه البلاد والعباد.

رابعا: المسؤولية الكونية

وتعني تكاتف البشرية جمعاء من أجل تعزيز الأخوة الإنسانية، ونشر ثقافة المحبة والتعاون والسلام، والانطلاق من المشتركات الدينية والثقافية والحضارية –وما أكثرها– والتعاون للقضاء على الحروب والصراعات، والتكاتف لمواجهة التحديات، والمحافظة على شتى مفردات البيئة والطبيعة والكون، والحفاظ على التوازن البيئي الذي خلقه الله في هذه الحياة، وعدم الإخلال به بأي صورة من الصور.

فعن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: (مَثَلُ القائِمِ علَى حُدُودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا علَى سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا علَى مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا علَى أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا)[٢٠].

وفي هذا الحديث الشريف يبين لنا رسولنا العظيم (ﷺ) معالمَ المسؤولية الكونية بمعناها الدقيق.. ولا ريب في أنَّ العالم أجمع مطالب باتباع هذه المعالم؛ حتى تنجو سفينة البشرية إلى بر الأمان، وإلا لازداد الخرق على الراقع، كما حدث في مشكلة ثقب الأوزون، وما ترتب عليها من مشكلات عالمية، وتغيرات مناخية خطيرة!!.

إن المسؤولية عندها ستتمكن منَّا ومن حياتنا ونربي أولادنا عليها؛ فإننا سنجني ثمارها (اتقانًا، إبداعًا، ازدهارًا، حوارًا، تفاهمًا، تعايشا، حفاظًا على الأوطان ومكتسباتها، فضلا عن آثارها الروحية والعلمية والبنائية والحضارية... إلخ) والتي ستبقى للاجيال القادمة بمقادر إخلاصنا وإتقانا وإبداعنا ومسؤوليتنا، وما أحوجنا إلى ذلك!!.

وفي هذا المقام نتذكر بإمعان وتدبر وإكبار حديث الفسيلة يقول النبي (ﷺ): (إن قامتِ السَّاعةُ وبيدِ أحدِكم فَسيلةً –أي صغار النخل– فاستطاعَ أن لا تقومَ حتَّى يغرِسَها فليغرسْها)[٢١].

ويا له من توجيه جليل نحو إحالة العقل والقلب لأن يكون ترك الأثر النافع هو الشغل الشاغل للمسلم على الدوام، بدلالة اختيار فسيلة النخل، وهي الشجرة الطيبة ذات المنافع في كل أجزائها.

وهكذا فإن صناعة الأثر الحضاري مسؤولية مشتركة، لا ينهض بها فرد دون جماعة، ولا جيل دون من بعده. فكل واحدٍ منا يحمل أمانة بين يدي الله، ثم بين يدي التاريخ والإنسانية، ليترك بصمة خير في موضعه وميدانه. وقد قال تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: ١٠٥).

فالمسؤولية هنا ليست ترفًا فكريًا، ولا شعارًا يُرفع، بل هي التزام واقعي بالعمل، والإبداع، والإضافة، وحمل الرسالة جيلاً بعد جيل. وهكذا فقط تُبنى الحضارات: بالمسؤولية الصادقة، والعمل المتواصل، والحرص على ترك الأثر الطيب الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

إننا إن وعينا قيمة هذه المسؤولية، وغرسناها في نفوس النشء والشباب، وأقمنا عليها سياساتنا ومؤسساتنا، كتب الله لنا أثرًا حضاريًا متجددًا، وأعاد للأمة مكانتها وريادتها، وصدق الله العظيم: (...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ...) (الرعد: ١١).

---

(٢٠) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢١) أخرجه بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني في عمدة القاري – إسناده حسن.

الأوقاف الإسلامية

شاهد عيان على آثار المسلمين الخالدة ومسؤوليتهم في ترقية الحياة (٢٢)

الوقف في اللغة: الحبس والمنع. وفي الاصطلاح: هو حبس الأصل وتسبيل المنفعة، أي أن يحبس المسلم مالًا ثابتًا أو منقولًا، بحيث لا يُباع ولا يوهب ولا يُورَّث، ويجعل ريعه ومنفعته في سبيل الله، على وجهٍ من وجوه الخير والبر، بشكل دائم إلى يوم القيامة.

ومن رحمة الله (تعالى) بعباده أن جعل لهم عملًا يبقى بعد وفاتهم، يضاعف حسناتهم وهم في قبورهم.

والوقف من أعظم صور الصدقة الجارية، إذ يبقى أثره ممتدًا بامتداد نفعه. فمن أوقف مسجدًا عُمِّر بالصلاة والذكر، أو مدرسة قامت على نشر العلم، أو مستشفى عالج المرضى، أو بئرًا شرب منه العطاش، أو أرضًا للفقراء والمساكين، كان له من الأجر بقدر ما ينتفع الناس بوقفه إلى يوم القيامة. وقد أجمع الفقهاء على مشروعية الوقف.

تفرد الإسلام بفكرة الوقف:

مؤسسة الوقف في الإسلام فريدة من نوعها؛ لم تعرفها الأمم السابقة بهذا الشمول والدوام. فقد عُرف عند بعض الأمم القديمة أعمال خيرية محدودة، لكن لم يوجد نظام شامل ومنظم كالوقف الإسلامي، الذي شمل جميع مجالات الحياة: الدين، التعليم، الصحة، الرعاية الاجتماعية، والحماية الوطنية، إغاثة المنكوبين، خدمة الحيوان، بل وحتى توفير سبل الراحة والأمان للحجاج وأبناء السبيل.

وقد كانت الأوقاف سببًا في استمرار الحضارة الإسلامية، إذ قامت بها الجامعات الكبرى مثل الأزهر الشريف في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، والجامع الأموي في دمشق... وغيرها كثير، وظلت هذه المؤسسات قائمة بفضل الأوقاف قرونًا طويلة، تخرج العلماء وتعلم الناس وتنشر النور والسلام في كل مكان.

نماذج مضيئة من الأوقاف:

- فهذا سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، اشترى بئر رومة من اليهود، وجعلها وقفًا للمسلمين يشربون منها بلا ثمن، ولا يزال ثوابها جاريًا له إلى يومنا هذا.
- وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وقف نخله بخيبر وجعل ثمره للفقراء وذوي القربى والمسافرين.
- ووقف كثير من العلماء والأثرياء مكتبات، وبيمارستانات (مستشفيات) لعلاج المرضى، وخانات لاستضافة الغرباء، حتى صارت الأوقاف من أعظم سمات الحضارة الإسلامية.

نماذج من الأوقاف في مصر:

لقد زخرت مصر عبر تاريخها بالأوقاف الإسلامية، التي كان لها أعظم الأثر في حياة الناس:

- فقد كان الأزهر الشريف قائمًا على الأوقاف، تُصرف منها رواتب العلماء والطلاب، ويُؤمَّن لهم الطعام والشراب والكسوة والسكن والكتب...إلخ.
- ووقف السلاطين والأمراء أوقافًا عظيمة لبناء المدارس والبيمارستانات، مثل بيمارستان قلاوون في القاهرة الذي عالج المرضى مجانًا قرونًا طويلة.
- ووقف السلطان قايتباي أموالًا وأراضي ضخمة للإنفاق على مسجده ومدرسته وسبيله وكُتَّابه بالقاهرة، لا تزال شاهدة على حضارة الإسلام.

(٢٢) راجع رسالة الدكتوراه، للدكتور أحمد علي سليمان، بعنوان: خبرة الجامعات الوقفية بتركيا وإمكانية الإفادة منها في مصر، عام ٢٠١٣م.

- وكان الناس يوقفون حتى الأواني والآلات الزراعية، أو يوقفون أموالًا لتزويج الفقراء، أو لإصلاح الجسور، أو لإضاءة المساجد والشوارع ليلًا.

والجميل أن الوقف ليس مجرد مؤسسة مالية، بل هو شريان حياة للأمة، ووسيلة لحماية المجتمع من الفقر والعوز والجهل والمرض.

إبداعات الحضارة الإسلامية في مصارف الأوقاف

ابتكار حضاري وتجربة إنسانية رائدة

(الدولة العثمانية أنموذجاً) (٢٣):

ومما يشير إلى تغلغل الأوقاف في شتى مناحي الحياة المختلفة في الحضارة الإسلامية، لاسيما في الدولة العثمانية، وبشكل متفرد أنه كان يصرف من إيرادات الأوقاف الخيرية على شتى المنافع (الدينية والدنيوية).

وفي هذا الإطار لا يمكن فصل تاريخ هذه الدولة عن تاريخ الحضارة الإسلامية السابقة عليها؛ خصوصا الدولة السلجوقية، فالعثمانيون الذين أتوا من وسط آسيا ليستوطنوا الأناضول مكونين دولة إسلامية كبرى هناك، قد شرعوا –كغيرهم– في إنشاء المؤسسات الوقفية مثل: المساجد، والمدارس، والكتاتيب، ومعاهد العلم، والأربطة، والتكايا، والمقابر، والجسور، وشق الترع وقنوات المياه، والمستشفيات، ودور الإيواء، ودور ضيافة المغتربين... وغيرها من المؤسسات الخيرية والإنسانية كما سبق(٢٤)ومن ثم شاعت فكرة الوقف بين أفراد المجتمع الأمر الذي أسهم في إقبالهم عليها وتوارثها، في ظل حكام تواتروا، عبر التاريخ، على حماية مؤسسة الوقف، ورعايتها، وبذل ما في الوسع لديمومتها، وعدم تكبيلها بتشريعات أو غيرها من الأمور التي قد تؤدي إلى صرف الناس عن إنشاء الأوقاف(٢٥).

فانتشرت الأوقاف في كل مكان. وقد وجدت في هذه الدولة إمكانية لتطوير الأوقاف من خلال الاعتماد على شروط الفقهاء عليها وتنفيذها لضمان صيانتها ورعايتها ومن ثم استمرارها في القيام بأدوارها المهمة(٢٦).

هذا ولم تكن وظيفة المساجد في مفهوم الدولة مقصورة على إقامة الصلاة فحسب، بل كانت تلحق بالمساجد –خصوصا الكبرى– منشآت خيرية وتربوية تضم: مدرسة ومكتبة تحفل بكنوز التراث الفكري الإسلامي سواء باللغة العربية أو التركية أو غيرها. وكانت المدرسة أو المعهد الملحق بالمسجد يتسع لسكنى الأساتذة والطلاب، كما كانت هذه المباني تضم حمامًا ومطبخًا ودارًا للعجزة ومستشفى ودارا ينزل فيها الغرباء ويطلق عليها الخان. وكان المسجد الكبير وما يلحق به من هذه المؤسسات يبدو كأنه مدينة مستقلة للأعمال الخيرية العامة. ومن بين المساجد التي طبق فيها هذا النظام مساجد: محمد الفاتح (١٤٥١–١٤٨١م)، وسليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦م)، وأحمد الأول (١٦٠٣–١٦١٧م) في إستانبول... وغيرها(٢٧).

ونشير هنا إلى أهم إبداعات مصارف الأوقاف وإبداعها وتفردها في ذلك، على النحو التالي:

- "أن المولود كان يولد في منزل وقفي (رباط مخصص للولادة).
- على يد القابلة –الداية– التي تتقاضى راتبًا من أموال الوقف، أو أن القابلة توقف جهدها لله تعالى،

---

(٢٣) أحمد علي سليمان: دور الأوقاف في نهضة تركيا الحديثة "الجامعات الوقفية نموذجا"، (مرجع سابق)، ص ١١٩– ١٢١.

(٢٤) Ziya Kazıcı: Islam Medeniyeti ve Müesseseleri Tarihi, s. ٢٧٧. ٨. Baskı. İstanbul. ٢٠١٠..

(٢٥) أحمد علي سليمان: مكانة الأوقاف في نهضة تركيا الحديثة، (مرجع سابق)، ص ١٠.

(٢٦) Ziya Kazıcı: Osmanlı Vakıf Medeniyeti. s. ٨٠-٨٢.

(٢٧) عبد العزيز الشناوي: (مرجع سابق)، ص ٤٤٦ وما بعدها.

- وينام المولود في مهد وقفي.
- ويأكل ويشرب من أموال الوقف –إن كان من أهل الحاجة.
- وعندما يبلغ بضع سنين، يلتحق بالكتاتيب –وهي من الأوقاف.
- ويتقاضى شيخه ومعلمه راتبه من أموال الوقف.
- ويلتحق بعد ذلك بالمدارس الوقفية.
- وعندما يقرأ كانت الكتب الموقوفة والتابعة للأوقاف هي المتوافرة بين يديه.
- ويكتب في ورق الأوقاف.
- وحِبر الكتابة يصرف من وقف خصص لذلك.
- وخلال مسيرة حياته يصلي الفتى في بيوت الله –المساجد– التي هي وقف لله تعالى.
- خلف إمام يتقاضى راتبه من أموال الوقف.
- ويسمع الدروس والخطب في المساجد من أهل العلم والفقه، الذين تكفل الوقف برعايتهم.
- وحينما يشتد عوده ويكون مهيأ للعمل والإنتاج يعمل غالبا في المؤسسات الوقفية –حيث كان ما يقارب الـ ٣٠٪ وفي بعض الأحيان ٥٠٪ من القوى البشرية تعمل في المجال الوقفي ودائرة الوقف.
- وعندما يمرض فإن "البيمارستانات" –المستشفيات– الوقفية تتولى علاجه وتوفر له الدواء بالمجان.
- والطبيب المعالج يتقاضى راتبه من ريع الأوقاف.
- ويشرب خلال مسيرة حياته أحيانًا كثيرة من أسبلة.
- ويتوضأ من متوضئات في المساجد والميادين، التي وقفها الواقفون.
- وعندما تحدث له ضائقة مالية، فإن من الأوقاف ما خصص لتفريج الكروب وسدِّ الديون، وحفظ كرامة الإنسان.
- وحينما يريد التنقل بين المدن والقرى، أو يقصد الحج إلى بيت الله الحرام؛ فإن (التكايا) والاستراحات والمخافر والآبار الوقفية، موزعة في الطرق وأماكن تجمع المسافرين، وما زال بعضها قائمًا إلى الآن ينتفع بها الناس.
- وعندما يحين أجله ويتوفاه الله تعالى، فإنه يُنقل من بيته إلى المغسلة الوقفية بعربات وقفية،
- ويغسله المغسل الذي يتقاضى راتبه من ريع الوقف.
- ويُحمل ويوضع في تابوت وقفي.
- ويكفن بكفن من أموال الوقف.
- ويُصلّي عليه المشيعون بإمامة إمام يتقاضى راتبه من الوقف.
- ويدفن أيضًا في مقبرة وقفية" (٢٨).

وإضافة إلى ماسبق، وبالجملة، فقد كان هناك أيضا:

➢ أوقاف خاصة بأداء الخدمات الدينية: وتشمل الإنفاق على المساجد، والزوايا، والمصليات، والتكايا وعلى الخطباء والأئمة، والقيمين، والمدرسين، والمؤذنين، والمؤقِتين(*).

(٢٨) راجع:
– عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، (مرجع سابق)،ص ٤٤٣ وما بعدها.
–سهيل صابان: الأوقاف في تركيا، مجلة الفيصل، عدد ٣٣٢، صفر ١٤٢٥هـ/ إبريل ٢٠٠٤م، ص ٦٧.
–عيسى القدومي: الوقف ومسيرة الحياة.. الدولة العثمانية نموذجًا، دراسة منشورة في مجلة الفرقان، الكويت، العدد ٦٥٧ الصادر في ١٠ محرم ١٤٣٣هـ– ٥ ديسمبر ٢٠١١م، ص ٤٠–٤١.
(*) هم الأشخاص الذين يعينون ويحددون مواقيت الصلاة وفقا لساعات الزوال.

- **أوقاف خاصة بالتربية والتعليم:** وتشمل الإنفاق على المؤسسات التعليمية، مثل: المدارس ودور العلم المتخصصة، كدور الحديث، ودور القرآن، والمكاتب والمكتبات، وتنظيم رحلات لطلاب المدارس يقومون بها في فصل الربيع، وتقديم مساعدات عينية في شكل ملابس لطلاب المدارس.

يقول المستشرق الألماني "كارل بروكلمان": "تنافس السلاطين والوزراء تنافسًا كبيرًا في إنشاء المدارس والمؤسسات التربوية بحيث انتشرت انتشارًا كبيرًا في العاصمة والولايات بحذاء المساجد عادة"(٢٩).

وقد حصل مجال التربية والتعليم الديني على النصيب الأوفر من الأوقاف، يليه التعليم العام. وكان يتم تحديد الوقف المخصص لإقامة مدرسة ما، ويتم معه وقف بعض الأوقاف الفرعية –لضمان استمرار النفقات المستدامة– للصرف من ريعها على المدرسة وصيانتها وغير ذلك(٣٠).

- **أوقاف تؤدي وظائف اجتماعية،** مثل: إنشاء المستشفيات ودور الشفاء، ودور العجزة، ومساكن خاصة بإرضاع الأطفال، والتكايا والأسبلة والخانقاوات والملاجئ وبيوت النساء المطلقات والأرامل، والمطابخ والمغاسل والحمامات العامة، وأيضا تقديم اعتمادات مالية إلى المعوزين والمحتاجين، وتقديم مساعدات للبنات اليتامى عند زواجهن، ودفع الديون عن المدينين المسجونين، وتقديم مساعدات مالية لسكان بعض القرى وأحياء بعض المدن؛ لدفع الضرائب العرفية، وتقديم الملابس للفقراء الطاعنين في السن، وتقديم المال لتجهيز الموتى الفقراء ودفنهم.
- **أوقاف خاصة بالآلات المدنية والأشغال العامة:** وهي التي تستهدف الخير العام ويعود نفعها على المجتمع كله، مثل إنشاء الطرق، وإقامة الجسور، وشق الترع والقنوات الصغيرة التي تمد القرى بالمياه العذبة، وبناء المنازل الوقفية، والحدائق والمزارع والبساتين.
- **أوقاف خاصة بالطيور والحيوانات:** ومن ذلك شراء كميات من الأرز والحبوب لإلقائها للطيور في مواسم الجليد نظرًا لشدة البرد، وشراء طعام للحيوانات، وأيضا أوقاف خاصة لعلاج الطيور المهاجرة التي يصيبها المرض أثناء سيرها في أجواء البلاد.
- **أوقاف خاصة بالأمور الاقتصادية،** مثل: الأسواق الوقفية، والتجمعات التجارية وأوقاف النقود.
- **أوقاف خاصة بخدمات المياه،** مثل: إنشاء الأسبلة، وبناء القنوات المائية للشرب والري.
- **أوقاف لإرشاد السفن،** ومنها: بناء المنائر لتحقيق الأمن للسفن عند اقترابها ليلاً من الثغور.
- **أوقاف خاصة بالآلات الرياضية،** مثل: أندية المصارعين، وتكايا للرمي (أي تعليم رمي السهام)، ومختلف أنواع الرياضات التي كانت متوافرة.
- **الأوقاف على الأنشطة العسكرية وحماية الحدود:** حيث حرص الواقفون على الإنفاق على العسكر الذين يقومون على حماية البلاد وأمنها، وتمويل عمليات التحصينات العسكرية، والإنفاق على السفن الحربية، وتأمين الدفاع عن أراضي الدولة بصفتها دار الإسلام تقف في مواجهة دار الحرب، وما تطلبه هذا التأمين من الإسهام المالي في تحصين البلاد والنهوض بالأسطول البحري الحربي العثماني وتطويره(٣١).

أوقاف فريدة في نوعها:

وإضافة إلى ما سبق كان هناك أيضا أوقاف فريدة في نوعها، منها على سبيل المثال:

- وقف خاص بتوفير جَهاز للعروس الفقيرة التي تريد الزواج.

---

(٢٩) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، الطبعة الخامسة، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م، ص: ٤٨٠.

(٣٠) Reazul Karim, 'Zakat and Wqaf Bank'- For Social Development and Improved Management of Endowments,. www. ihmsaw. org) p. ٤.

(٣١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، (مرجع سابق)، ص: ٤٤٤.

- ووقف خاص لدفع مبلغ معين للخادمات التي تتكسر الصحون بيدها، لدفعه إلى سيدها، حتى لا تتعرض للضرب أو التوبيخ.
- ومنها وقف خاص بـ:"المِداد" –أي الحبر– لتزويد العلماء بالقدر الكافي منه أثناء الدراسة والكتابة والتأليف والنسخ.
- ومنها الوقف الخاص لرضاعة الأطفال.
- ومنها الوقف الخاص بكبار السن من أصحاب القوارب، وكذلك الحمالين الذين لا يتمكنون من الاستمرار في العمل بسبب كبر سنهم.
- ومنها وقف خاص بتنظيف الشوارع والأزقة، وهناك وقف أغرب من ذلك، وهو تخصيص المال لتوظيف عدد معين من الرجال للقيام بتنظيف الشوارع من النخامة البلغم وما في حكمه، وذلك بصب الرماد عليه.
- ومنها وقف خاص بشراء الألعاب للأطفال الفقراء.
- ومنها وقف خاص بتوفير الحبوب لطائر اللقلق في الجامع الجديد بإستانبول.. وغير ذلك كثير(٣٢).

وكان الواقفون دائمًا ما يذكرون في صلب الوقفية أوجه الإنفاق التي يريدون توجيه إيرادات الأوقاف إليها، ويلتزم القائمون على الوقف بها التزامًا دقيقًا.

وقد كان للنساء في العصر العثماني دورهن في الوقف على المؤسسات التعليمية، حتى وإن اتخذت أشكالاً هيكلية أخرى سوى المدارس، مثل الوقف علي الجوامع والمساجد والزوايا والأسبلة والأنشطة الاجتماعية. فعلى سبيل المثال فإن السيدة صفية أم السلطان العثماني محمد الثالث أنشأت جامعًا حمل اسمها ووقفت عليه ٤٠٠ فدانا، و٣٢ دكانا وغير ذلك كثير. وهكذا فإن بذل الأوقاف لم يكن مقصورًا على الرجال فحسب؛ بل شجع العثمانيون النساء من مختلف الفئات على إنشاء الأوقاف؛ للإسهام في العمل الخيري الذي يعود بالفائدة على المجتمع، والدليل على ذلك: الأوقاف الكبرى التي أنشأتها نساء تنتمين للأسرة العثمانية من أمهات السلاطين وأخواتهم وبناتهم وزوجاتهم، إضافة إلى بعض نساء كبار رجال الدولة، والواقفات من بقية النساء باختلاف ظروفهن المادية. وكانت مقاصد أوقاف النساء غالبًا ما تتركز في: إنشاء المساجد والجوامع والمدارس – دفع المخصصات اليومية للأئمة والمؤذنين والعلماء والمدرسين – الإنفاق على الفقراء والأسر القريبة(٣٣) – عتق العبيد... حيث كان العثمانيون يولون هذه القضية عناية كبرى قبل إلغاء الرق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – وتوفير دخل للنساء، والعبيد المعتقين(٣٤) وغير ذلك من الدوافع.

ولا ريب في أن التطور الذي شهدته الأوقاف وقتذاك، انعكس إيجابًا على تفعيل دورها وتنويع مصادرها، وعلى التنوع في مجالاتها والخدمات التي تقدمها والتي ظلت فلسفتها قائمة في كثير منها إلى وقتنا الحالي.

---

(٣٢) سهيل صابان: الأوقاف في تركيا، (مرجع سابق)، ص ٦٥–٦٦.

(٣٣) لمزيد من المعلومات في موضوع أوقاف النساء يراجع:

–فاروق بيلجي: أوقاف النساء في مدينة إستانبول في النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة أوقاف، الأمانة العامة للأوقاف –الكويت، العدد١٩، السنة العاشرة، ذو الحجة ١٤٣١هـ / نوفمبر ٢٠١٠م، ص: ٩٤، ١٢٥.

–أماني صالح (وآخرون): الأوقاف الخيرية وعمارة الإنسان والمكان.. نحو توطين نموذج إسلامي معاصر للتنمية البشرية، دراسة في: أوقاف الفرد – الجمعية الأهلية – أوقاف النساء، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠م، ص – ص ١٠٤– ٢٩١.

– Omer D-Zabakar, Charitable women and their pious foundations in the Ottoman Empire: the Hospital of the Senior Mother, Nurbanu Valide Sultan, JISHIM, ٢٠٠٦, ٥, pp ١١-١٩.

–زينب أبو المجد: أوقاف النساء: المرأة، المعرفة، السلطة، مجلة المرأة والحضارة، العدد الأول، القاهرة: جمعية دراسات المرأة، عدد ربيع ٢٠٠٠م، ص ٢٤–٢٨.

–ماجدة مخلوف: أوقاف نساء السلاطين العثمانيين وقفية زوجة السلطان سليمان القانوني على الحرمين الشريفين، القاهرة: دار الآفاق العربية، ٢٠٠٦م، ص ٩ وما بعدها.

(٣٤) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، –مرجع سابق– ص: ٤٤٦..

وما يستحق الإشادة به أن المشرفين على هذه الأوقاف كانوا يلتزمون التزامًا دقيقًا بتوجيه الإنفاق إلى المصارف التي يحددها الواقفون انطلاقًا من القاعدة الشهيرة (شرط الواقف كشرع الشارع).

وهكذا نرى أن الوقف في الحضارة الإسلامية لم يكن مجرد صدقات مبعثرة، ولا أعمال خيرية محدودة الأثر، بل كان مؤسسة حضارية شاملة احتضنت الإنسان في كل مراحله، من مولده حتى وفاته، بل حتى بعد مواراته الثرى. لقد جسَّد الوقف أرقى صور التكافل الإنساني، والإبداع الاجتماعي، والعمق الحضاري، حتى قال المنصفون من المستشرقين :لم يعرف التاريخ مؤسسة مدنية أعظم أثرًا وأوسع انتشارًا من نظام الوقف في الإسلام.

إنها بصمة خالدة تثبت أن الإسلام ليس دينًا شعائريًّا فحسب؛ بل حضارة عملية راشدة، تبني الإنسان وتكرم الحيوان، وتخدم الأرض ومن عليها، وتصل الحاضر بالمستقبل، لتبقى الأوقاف شاهدًا ناطقًا على أن الخير في هذه الأمة باقٍ إلى يوم الدين. فلنحرص جميعًا على أن يكون لنا سهم في الوقف، مهما صغر أو كبر؛ لعل الله يكتب له بذلك أجرًا عظيمًا لا ينقطع. اللهم اجعلنا من أهل البذل والعطاء، ووفّقنا لعمل صالح يبقى بعد وفاتنا. وصلوا وسلموا على من أمرتم بالصلاة والسلام عليه، فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦). أيها الأخوة المؤمنون: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمدُ لله ربِّ العالمين، نحمدُه ونَستعينُه ونَستهْديه، نتوكَّل عليه، ونُثني عليه الخيرَ كلَّه، نَشكرُه ولا نَكفُره، ونَخلعُ ونَتركُ مَن يَفجُره، نَرجو رحمتَه ونَخشى عذابَه. ونَدْعوه على الدَّوام، ونَرْجوه على الدَّوام، ونَتعلَّق بحبالِه على الدَّوام. فاللهمَّ يا مَن لا تَراه في الدُّنيا العيون، ولا تُخالِطُه الظُّنون، ولا يصِفُه الواصفون.

وأشهد ألا لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمدا رسول الله، والصلاةُ والسَّلام الأتمّانِ الأكْمَلان، الأشْرَفانِ الأنْوَران، الأعْطَرانِ الأزْهَران؛ على مَن جُمعَتْ كلُّ الكَمالاتِ فيه.. وعلى آلِه وصحبِه وتابعيه.

عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله.. يقول الحق (تبارك وتَعَالَى): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢). أما بعد يا عباد الله...

نماذج ملهمة من أصحاب الأثر النافع الباقي

ولقد ترك الأنبياء والمرسلون (عليهم السلام) والعلماء والمصلحون والربانيون (رضي الله عنهم) آثارًا باقية في شتى نواحي الحياة، ما زالت تعيش بيننا، وتبقى ممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد دعا **خليل الرحمن سيدنا إبراهيم** عليه السلام فقال: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) (الشعراء: ٨٤)، أي ذكرًا حسنًا وأثرًا باقيًا في المؤمنين، فاستجاب الله له، فصار ذكره يتجدد في الصلاة والحج والدعاء... إلى يوم الدين.

ولنا في **سيدنا رسول الله** (ﷺ) المثل الأعلى والنبراس الهادي؛ إذ ترك أثرًا لا يزول، وهداية لا تنطفئ، ودينًا باقياً ما بقيت السماوات والأرض، فلم يترك مالًا ولا بناءً، لكنه ترك دينًا قويمًا، وهديًا مستقيمًا، وأمّةً شاهدةً على الناس. ثم تخرّج في مدرسته رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا قدوة وأسوة ومثالًا للأمة.

- فهذا **أبو بكر الصديق** (رضي الله عنه)، أثره ظاهر في الصدق والإيثار والتضحية، وهو الذي ثبَّت الله به جماعة المسلمين يوم الردة، وجهاد مانعي الزكاة، فصار أثره في حماية الإسلام والحفاظ عليه والثبات على المبدأ مدرسةً للأجيال.
- وهذا **عمر بن الخطاب** (رضي الله عنه)، الفاروق العادل، أقام العدل، ونشر الرحمة، وأنشأ الدواوين، ونظم الدولة، فصار أثر رحمته وعدله باقيًا إلى يومنا هذا.

- وهذا **عثمان بن عفان** (رضي الله عنه)، جهّز جيش العُسرة، واشترى بئر رومة ووقفها للمسلمين، ووسع مسجد رسول الله (ﷺ)، فبقي إنفاقه صدقة جارية شاهدة له عبر القرون.
- وهذا **علي بن أبي طالب** (رضي الله عنه)، ترك علمًا نافعًا، وفقهًا راسخًا، وبلاغة بديعة، وحكمة عالية، وأخلاقًا زكية، وقيما بانية، فبقي أثره في العقول والقلوب إلى اليوم.

ثم جاء بعد الصحابة أئمة الهدى، فكل واحد منهم ترك أثرًا باقياً، ومنارات علم تهدي الأمة:

- الإمام **أبو حنيفة النعمان**: أسس مدرسة فقهية عظيمة انتشر أثرها في المشرق والمغرب.
- الإمام **مالك**: خلّد الله ذكره بـ الموطأ ومدرسته في المدينة، ومذهبه الشهير.
- الإمام **الشافعي**: وضع علم أصول الفقه، ومذهبه الشهير، ويتبع مذهبه الفقهي مئات لملايين حول العالم.
- الإمام **أحمد بن حنبل**: أنشأ مذهبا فقهيا عظيما، وصبر على المحنة، فصار أثره في العلم وفي الثبات على الحق قدوة للمسلمين.
- الإمام **الليث بن سعد**: إمام أهل مصر في عصره، جمع بين العلم والكرم، وكان أثره في الفقه والحديث والدعوة والعطاء مضرب المثل، وقد ذكرنا في كتابنا عنه (رضي الله عنه) "أنه علَّم الإنسانيةَ، معنى الإنسانيةِ".
- الإمام **البخاري** والإمام **مسلم**: تركا أصح الكتب بعد كتاب الله، فبقي أثرهما منارًا لحفظ السنة.
- الإمام **النووي**: لم يطل عمره، لكنه ترك كتبًا تقرأ في كل بيت، مثل رياض الصالحين والأربعين النووية.
- الإمام **أبي حامد الغزالي**: جمع بين العقل والروح، فصار حجة الإسلام.
- الإمام **العز بن عبد السلام**: سلطان العلماء، صدع بالحق في وجه السلاطين، وأرسى معالم العزة والكرامة للأمة.
- الإمام **ابن عطاء الله السكندري**: ترك الحِكَم العطائية تهز القلوب، وتوقظ الأرواح، وتفتح أبواب السير إلى الله.
- الإمام **ابن دقيق العيد**: جمع بين الفقه والحديث، فصار إمامًا مجتهدًا في كلا العِلمين، يُقتدى بعلمه ودقته.
- سيدنا **عبد الله بن المبارك**: جمع بين الجهاد والعلم والإنفاق، فكان أثره مضاعفًا وذِكره مباركًا ومكررا في ميادين الخير كلها.

وفي النساء قدوات مضيئات:

- السيدة **آسية امرأة فرعون**: صبرت على الأذى والثبات على الحق، فصارت قدوة للمؤمنين.
- السيدة **خديجة بنت خويلد** (رضي الله عنها): دعمت رسول الله (ﷺ) بنفسها ومالها، فكان أثرها في الدعوة لا يُنسى.

وفي عصرنا القريب، خلّد رجال ونساء من العلماء والمصلحين آثارًا باقية تشهد لهم عبر الأزمان:

- فالإمام **محمد متولي الشعراوي** (رحمه الله) أبقى تفسيره حيًّا في قلوب الملايين.
- والشيخ **محمد الغزالي** (رحمه الله) أضاء العقول وأنار القلوب والحياة بفكره المتجدد.

والشيخ **جاد الحق علي جاد الحق** (رحمه الله) جمع بين العلم والشجاعة فكان حصنًا في الدفاع عن الإسلام.

وفي ميدان الفكر والثقافة، ترك الأستاذ عباس محمود **العقاد** (رحمه الله) تراثًا أدبيًا وفكريًا عظيمًا أثرى المكتبة العربية.

- وفي مجال الطب والجراحة، قدّم الأستاذ الدكتور/ **مجدي يعقوب** (وفقه الله) نموذج الرحمة والعطاء الإنساني الفريد في مجال جراحة القلب، فأصبح طبيب القلوب، ومصدرا للرحمة والإلهام في كل مكان.

- فيما سجّل الدكتور **أحمد زويل** (رحمه الله) إنجازًا عالميًّا أفاد البشرية كلها، بما اكتشفه من علم الفيمتو ثانية، الذي فتح آفاقًا جديدة لفهم حركة الذرات والجزيئات في لحظات متناهية الصغر، وكان ثمرة ذلك أن نال جائزة نوبل سنة ١٩٩٩م، فخلّد اسمه في سجل العلماء الكبار، وجعل لمصر والعالم الإسلامي مكانة مشرقة بين الأمم.
- وكان المهندس **هاني عازر** شاهدًا على عبقرية المصري في أرقى ميادين الهندسة العالمية، إذ أشرف على أعظم المشروعات الإنشائية بألمانيا، فغدا اسمه علامة بارزة في سجل المبدعين.

كما لمعت أسماء رائدات حملن رسالة العلم بإخلاص، مثل:

- الأستاذة الدكتورة **سميرة موسى** (رحمها الله) عالمة الذرة المصرية الرائدة، آمنت بحق الأمة في امتلاك العلم النووي للأغراض السلمية، فنذرت حياتها لخدمة وطنها، وضحّت بروحها في سبيل مشروعها العلمي والوطني، فصارت رمزًا للعلم والوفاء والانتماء.
- الأستاذة الدكتورة **عائشة عبد الرحمن** (بنت الشاطئ) (رحمها الله) التي تركت بصمةً فكرية وأدبية وعلمية عظيمة في الدراسات القرآنية واللغة العربية.

هذه نماذج مشرقة لرجال ونساء تركوا آثارًا خالدة، فصاروا حديث التاريخ، ومادة القدوة، ومشاعل النور في دروب الحياة.

خطوات عملية لتربية الأولاد على صناعة الأثر:

الأولاد أيها القارئ الكريم ليسوا مجرد ورثة لممتلكاتنا، بل هم ورثة أثرنا الطيب، وحملة الخير من بعدنا.

ومن ثم فمن زرع فيهم قيم العمل الصالح، وغرس في قلوبهم حب البذل والعطاء والإخلاص، وبث في قلوبهم ووجدانهم قيم الرحمة، والعدل، والتسامح، والتسامي،... إلخ، فقد صنع أثرًا خالدًا لا يزول، يبقى شاهدًا له ولجيله في الدنيا والآخرة. وإليكم أهم الخطوات العملية لتربيهم على ثقافة وقيم صناعة الأثر.

١. **التربية بالقدوة:**

كونوا أنتم قدوة صالحة لأولادكم، فإنهم يتعلمون أكثر مما تفعلون، لا مما يسمعون فقط. علموهم الصدق العملي، والإخلاص العملي، والإحسان التطبيقي، والعدل في كل تصرف مهما كان المخالف أو الخصم، المسؤولية الحقيقية الفاعلة والبانية، وضرورة ترك أثر نافع في هذه الحياة.

٢. **غرس حب الخير والعطاء:**

علّموهم أن الخير لا يقاس بالمال وحده، بل بالكلمة الطيبة، ومساعدة الآخرين، والحرص على نفع الناس. اجعلوهم يشاركون في صدقة صغيرة، أو خدمة محتاج، ليشعروا بمتعة العطاء.

٣. **تعليم العلم النافع والعمل الصالح**

شجعوهم على طلب العلم، وحب المعرفة، فالعلم الذي ينتفع به الناس يظل أثره خالدًا بعد الموت. وعلموهم أن العلم عبادة والعمل عبادة، والإبداع والاختراع والتفكير كلها تقع في دائرة العبادة؛ إذا وجهت النية، وسما الهدف...

٤. **غرس الثبات على القيم والمبادئ:**

علموهم أن الرقابة الذاتية والثبات على الحق، حتى لا يتأثرون بالضغوط أو الصعوبات. فالثبات على المبادئ يجعل أثر الإنسان قويا ومتينًا وقادرا على مواجهة التحديات في كل زمان ومكان.

٥. **تشجيع الإبداع والخدمة المجتمعية:**

حفزوهم على ابتكار طرق تخدم الناس، فكل فعل نافع هو أثر دائم، مهما صغر حجمه.

٦. **التأكيد على النية الخالصة لله:**

علّموهم أن كل سلوك نافع وصالح، مهما كان صغيرًا، إذا كان خالصًا لله تعالى، فهو أثرٌ جميل، ويجعلهم يربطون أعمالهم بالآخرة وليس بالسمعة أو المدح.

اللهم اجعلنا من أصحاب العلم النافع والأثر الممتد والباقي إلى يوم الدين، ولا تجعلنا من الغافلين المفرطين، واجعل آثارنا شاهدة لنا لا علينا، يوم نلقاك.. يا رب العالمين

اللهم احفظ مصر شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، طولها وعرضها وعمقها، بحارها وسماءها ونيلها، ووفق يا ربنا قيادتها وجيشها وأمنها وأزهرها الشريف، وعلماءها، واحفظ شعبها، وبلاد المحبين يا رب العالمين.

اللهم اشف مرضانا وارحم موتانا اللهم طهّر قلوبنا من الكبر، وزيّنها بالتواضع،اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلّ اللهم وسلِّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: ١٩)، (.. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ...) (الأعراف: ٤٣)... اللهم تقبل هذا العمل من الجميع... وبالله (تعالى) التوفيق

خادم الدعوة والدعاة د/ أحمد علي سليمان

عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

والحاصل على المركز الأول على مستوى الجمهورية في خدمة الفقه والدعوة (وقف الفنجري ٢٠٢٢م)

المدير التنفيذي السابق لرابطة الجامعات الإسلامية- عضو نقابة اتحاد كُتَّاب مصر

واتس آب: ٠١١٢٢٢٢٥١١٥ بريد إلكتروني: drsoliman55555@gmail. com

تم تدشين صفحة #معارج_الدعاة للدكتور أحمد علي سليمان، للإسهام في إثراء العمل الدعوي والدعاة يرجى متابعتها ونشرها

https: //www. facebook. com/share/١٦u٦EDacEw/?mibextid=LQQJ٤d